■ **فرنسا**

شهدت الشوارع الفرنسية، أول من أمس، تحرّكاً مزدوجاً لـ«السترات الصفر» ومناهضي التغير المناخي، احتجاجاً على سياسات إيمانويل ماكرون المناخية والاجتماعية والاقتصادية. وعلى الرغم من التركيز الإعلامي على العنف الذي اتّسم به بعض التحركات، إلا أن ذلك لا يلغي واقع أن «السترات الصفر» استعادت زخمها، وسجّلت تزايداً في أعداد المشاركين، متوعّدة باستقطاب المزيد من المحتجين في التحركات اللاحقة

«السترات الصفر» تستعيد زخمها:
نحو تصعيد التحركات رفضاً لـ«التجاهل»

شهد بعض التحركات مواجهات بين المتظاهرين والشرطة (أ ف ب)

عادت «السترات الصفر» إلى الشارع، أول من أمس، بالزخم الذي كانت قد حملته خلال الأشهر السابقة، مُعلنة بذلك عدم الرضوخ لتجاهل الحكومة الفرنسية لمطالبها ولاحتجاجها على سياساتها الاجتماعية، بعدما كانت تحركاتها قد شهدت انخفاضاً في وتيرتها خلال الأسابيع القليلة الماضية، الأمر الذي عدّته وسائل إعلام فرنسية «هبوطاً في شعبية السترات الصفر واتجاهاً إلى زوالها». إلا أن تحرك السبت عاد ليرسم المشهد، وليضع الرئيس إيمانويل ماكرون أمام واقع كان اعتقد أنه تخطّاه، خصوصاً أن التحرك الأخير شهد موجة جديدة من أعمال العنف، تعبيراً عن مناهضة إصلاحاته الاقتصادية المؤيدة لقطاع الأعمال. وقد تزامنت هذه التحركات مع تظاهرات كبيرة للآلاف من الناشطين ضد سياسة باريس المرتبطة بـ«التغير المناخي»، ما دفع ماكرون إلى قطع رحلة تزلّج في جبال البيرينيه، والعودة إلى القصر الرئاسي. اعتبر الرئيس أن المتظاهرين يسعون إلى «تدمير الجمهورية» الفرنسية، وكتب على صفحته على موقع «تويتر» أن «ما حدث اليوم في جادة الشانزيليزيه لم يعد يُعتبر مظهراً من التعبير عن الرأي. هؤلاء أشخاص يريدون تدمير الجمهورية. كل من شارك هناك».

إلا أن كلام ماكرون لم يلغ حقيقة أن «السترات الصفر» استعادت، في أسبوعها الـ18، قوتها، في ظل ارتفاع عدد المشاركين فيها عمّا كان عليه في الأسبوع السابق. وقد أشارت تقديرات وزارة الداخلية إلى مشاركة عشرة آلاف شخص في الاحتجاج في باريس، مقارنة بمشاركة ثلاثة آلاف السبت الماضي. وفي مناطق أخرى من فرنسا، قُدّر عدد المحتجين بنحو 32300 محتج مقارنة بنحو 28600 في الأسبوع الماضي، في حين تعهّد المحتجون بجذب أعداد أكبر من المتظاهرين بمناسبة دخول الاحتجاجات شهرها الرابع.

كذلك، أشار وزير الداخلية، كريستوف كاستانير، إلى أنه «على الرغم من أن الاحتجاجات تعتبر صغيرة نسبياً، فإنه كان هناك أكثر من 1500 شخص يتّسمون بالعنف الشديد يتجوّلون بغرض إثارة الشغب والاضطرابات». ولفت إلى أن أكثر من 1400 من أفراد الشرطة نشروا لمواجهة أعمال العنف.

في سياق متصل، قدّرت وزارة الداخلية عدد المشاركين في مسيرة أخرى منفصلة مناهضة للتغير المناخي بستة وثلاثين ألفاً في باريس، و145 ألف شخص في تظاهرات في كلّ أنحاء فرنسا. وقد تظاهر عشرات آلاف الاشخاص في أنحاء فرنسا، تحت شعار «نهاية العالم ونهاية الشهر، معركة واحدة»، في إطار ما أطلق عليه «مسيرة القرن»، للتنديد بـ«عدم تحرك» الحكومة الفرنسية لمواجهة التغيرات المناخية، وأيضاً لدعم المطالب الاجتماعية لحركات «السترات الصفر».

> **رفع المحتجون ضد التغيّر المناخي لافتات هاجموا فيها سياسات ماكرون**

ولكن، بحسب تعداد لائتلاف وسائل إعلام، فقد شارك في التظاهرة في باريس 45 ألف شخص، بينما أفاد منظمو التظاهرة بأنهم كانوا 107 آلاف. وأعلن منظّمو التظاهرة، في بيان، أن «أكثر من 350 ألف شخص شاركوا في مسيرات نُظّمت في 220 مدينة في مختلف أنحاء فرنسا، للتنديد بعدم تحرك الحكومة الفرنسية للتصدي لأزمة المناخ، وتعنّتها إزاء الأزمة الاجتماعية».

وفي نهار مشمس في باريس، سارت حشود كبيرة من ساحة الأوبرا إلى ساحة الجمهورية. وشهدت التظاهرة مشاركة كثيفة من الشباب في أجواء احتفالية، حيث رفع المحتجون لافتات كُتب عليها: «كفى لغواً لا بدّ من أفعال في مجال المناخ»، و«نهاية العالم ونهاية الشهر، المجرمون أنفسهم والمعركة نفسها»، وانتقدت لافتات أخرى الرئيس إيمانويل ماكرون، مطالبة الحكومة الفرنسية بالتصدي للتغير المناخي.

وفي كانون الأول/ ديسمبر 2015، وقّعت 190 دولة على اتفاق المناخ المبرم في باريس، متعهّدة بحصر الاحترار المناخي بأقلّ من درجتين مئويتين نسبة إلى مستويات العصر ما قبل الصناعي. لكن بعد أشهر من وصوله إلى البيت الأبيض، أعلن الرئيس الأميركي دونالد ترامب انسحاب الولايات المتحدة من اتفاق باريس. ثم عاد، أمس، ليوجّه سهامه إلى فرنسا، موحياً بأن سياستها حيال المناخ مسؤولة عمّا يحصل. وسأل ترامب على «تويتر»: «ماذا حقق اتفاق باريس حول المناخ لفرنسا؟». وكتب مجيباً عن سؤاله: «بعد 18 أسبوعاً من أعمال الشغب التي يقوم بها المحتجون من السترات الصفر، لا أعتقد أنه حقق أموراً جيدة! في الأثناء، ارتقت الولايات المتحدة إلى رأس جميع القوائم حول البيئة».

(الأخبار، أ ف ب)

■ **نيوزيلندا**

قاتل «كرايستشيرش» يمثل أمام القضاء: سعي رسمي لامتصاص الغضب

بدا من الواضح، خلال اليومين الماضيين، أن مذبحة المسجدين التي أودت بحياة 51 شخصاً، وفق حصيلة جديدة، تركت أثراً عميقاً في النيوزيلنديين، عموماً، وهو ما تبدّى في التقارير الإعلامية التي ركّزت على السعي إلى استيعاب الصدمة، في وقت عمدت فيه رئيسة الوزراء إلى امتصاص الغضب، عبر زيارة عائلات الضحايا. وربّما جاء المثول السريع لمنفّذ الهجوم، الأسترالي برينتون تارانت، أمام المحكمة، ليخدم الهدف ذاته

في الوقت الذي لا تزال فيه مجزرة المسجدين في نيوزيلندا تتفاعل، وتتكشّف في شأنها حقائق متتالية، مثل منفّذ الهجوم الذي أودى بحياة 51 مصلياً (وفق حصيلة جديدة)، يوم الجمعة الماضي، الأسترالي برينتون تارانت (28 عاماً) أمام المحكمة الجزائية في كرايستشيرش، مكبّل اليدين ومرتدياً ملابس السجن البيضاء، في ما يمكن أن يعدّ مؤشراً على السعي الرسمي إلى التخفيف من حدّة الاحتقان الذي ظهر، خلال اليومين الماضيين، بين مختلف النيوزيلنديين. ومن المقرّر أن يمثل ثانية أمام المحكمة في الخامس من نيسان/ أبريل المقبل.

رئيسة الوزراء، جاسيندا أرديرن، عملت من جهتها على امتصاص الغضب، عبر تعزية أقارب ضحايا الحادث الإرهابي، الذي مثّل واحداً من أفظع هجمات اليمين المتطرّف في السنوات الأخيرة. وأكدت أرديرن أن تارانت سيحاكم في نيوزيلندا، ولن يتم تسليمه لبلده. كذلك، تعهّدت بتحمّل كلفة دفن الضحايا، وتوفير الدعم المالي لأسرهم، بغض النظر عن وضعهم القانوني كمهاجرين. أرديرن أعلنت، أيضاً، أنها ستراجع قوانين حيازة السلاح، مشدّدة على أن «هذه القوانين يجب أن تتغيّر، وسنبحث القوانين الجدية لحيازة السلاح».

تجاوب أرديرن السريع مع الجريمة، وإصرارها على تقديم العزاء بنفسها، كان لهما أثرهما في تخفيف حالة الاحتقان التي تصدرت المشهد، خصوصاً بعد التصريحات التي أدلى بها السيناتور الأسترالي، فريزر أنينغ، الذي اتهم المسلمين بأنهم «سبب التطرف الأول»، محمّلاً الضحايا المسؤولية غير المباشرة عما حدث. وقد أثارت هذه التصريحات موجة من الغضب، دفعت رئيس الوزراء الأسترالي، سكوت موريسون، إلى الرد بنفسه، قائلاً إن «إلقاء اللوم في ما شهدته نيوزيلندا اليوم على الهجرة، أمر مقزّز». من جهتها، وصفت أرديرن هذا الموقف بأنه «قمة العار».

> **تعهّدت رئيسة الوزراء بتحمّل كلفة دفن الضحايا وتوفير الدعم المالي لأسرهم**

من جهة أخرى، اعترفت رئيسة الوزراء بأن مكتبها تلقّى يوم الحادث «بياناً» من المسلّح، قبل دقائق من حصول الاعتداء. وأوضحت للصحافيين أن البيان «لم يتضمن أيّ موقع أو تفاصيل محددة»، مضيفة أنه جرى إرساله إلى أجهزة الأمن خلال دقيقتين من تسلّمه. وأضافت أرديرن أنها قرأت «عناصر من البيان» الواقع في 74 صفحة، والذي برّر فيه مُطلق النار أسباب المجزرة التي ارتكبها، معتبرة أن «وجود بيان أيديولوجي لوجهات النظر المتطرفة هو بالطبع أمر مقلق للغاية».

توافد سكان كرايست تشيرش نحو مقر المسجدين لوضع الزهور تكريماً للضحايا (أ ف ب)

في موازاة ذلك، تفاعل المواطنون النيوزيلنديون مع دعوات التضامن العابرة للديانات، إذ ارتفعت التبرعات لذوي الضحايا إلى 6,22 ملايين دولار. وذكرت صحيفة «نيوزيلند هيرالد»، على موقعها الإلكتروني، أنه جرى جمع أكثر من 6,22 ملايين دولار، حتى مساء الأحد (أمس). كذلك، تقاطر سكان كرايستشيرش إلى مقرّي المسجدين لوضع الزهور تكريماً للضحايا.

جاء ذلك فيما شهدت مدن عديدة حول العالم تظاهرات منددة بمجزرة المسجدين، من بينها الرباط، وبيت لحم، ورام الله، وإسطنبول، وأثينا، وبرلين، وروتردام الهولندية، واستوكهولم، ولندن، وفيينا، والهند، وباكستان، وإندونيسيا، ونيويورك.

(الأخبار، الأناضول، أ ف ب)

عقل القاتل: بيان «الإرهاب الأبيض»

عامر محسن

«إلى الأتراك: سوف نأتي من أجل القسطنطينية، سوف ندمّر كل مسجدٍ ومئذنةٍ في المدينة. سوف تتحرّر كنيسة القديسة صوفيا من المآذن وستعود القسطنطينية ملكيّةً مسيحيّةً من جديد»

«سيتمّ نسياني بسرعة. هذا لا يزعجني. أنا، في نهاية الأمر، إنسانٌ تهمّه الخصوصية، وانطوائي عموماً. ولكنّ الهزات الارتدادية التي ستولّدها أفعالي سوف تفعل فعلها لسنواتٍ قادمة، وتوجّه الخطاب السياسي والاجتماعي، وتخلق مناخ الخوف والتغيير اللازم»

«عليك أن تتوقّع الموت، أن تتوقّع النضال، أن تتوقّع خسارةً لن تنساها أبداً. لا تتوقّع أن تنجو، الشيء الوحيد الذي يجب أن تتوقّعه هو حربٌ حقيقية، وأن تموت ميتة جنديّ حقيقيّ».

من «مانيفستو» برنتون تارَنت

حين تقرأ «البيان» الذي كتبه القاتل الأوسترالي برنتون تارَنت، قبيل ارتكاب جريمته (وقد أرسله قبل دقائق من بدء المَقتلة الى رئيسة وزراء نيوزيلندا ومسؤولين حكوميين ووسائل إعلامية)، فإنّ الأمر الأكثر دلالة هو ليس الحجج التي يقدّمها القاتل في حدّ ذاتها، أو محاولة تحليل دوافعه وشخصيته وما حوّله الى عنصريّ عنيف. الأكثر أهمية في النصّ هو أنّه «يعكس» ثقافة القاتل: ما هي مصادرها؟ أين اكتسبها؟ كيف بنى آراءه السياسية، وبرفقة من؟ وهنا، تحديداً، الجانب المقلق فعلاً في جريمة برنتون تارَنت.

ما تكتشفه هو أنّ تارَنت لا يشبه نموذج المتطرّف العنيف الذي يفاجئ العالم بإجرامه. هو ليس متطرّفاً معزولاً «معادياً للمجتمع»، بنى ثقافته وحيداً في غرفته وتبنّى آراء الهامشيين ونظريات المؤامرة، حتّى أصبح مهووساً يرى في العالم ما لا نراه. المشكلة هي أنّ تارَنت ينتمي، في الحقيقة، الى «تيّار عريض» وليس الى جماعة هامشيّة. كلّ فكرة في بيانه منتشرةٌ بين جماهير اليمين. هو يعدّد، إضافةً الى رموز العنصريين البيض مثل اندرس بريفيك، مثقّفين وإعلاميين بالغي الانتشار في صفوف اليمين أثّروا به. حتى لغة تارَنت و«الرموز» و«النكات» التي استخدمها في بيانه العنصري تحيل الى ثقافة منتديات الإنترنت اليمينية الواسعة الانتشار (والمجرم قد أوقع بعض النجوم في حرجٍ، قد يكون مقصوداً من جانبه، كإرساله تحيّة الى «بيو دي باي»، وهو شخصية على يوتيوب يتابعها عشرات الملايين ويركّز على نقاش ألعاب الكمبيوتر، ويعتبر البعض أنه شعبيّ بين جمهور «اليمين الجديد»).

لغة «البيان» وأفكاره ركيكة، وهو مليء بالأخطاء النحويّة، ولكن هذا سيزيد من انتشاره وتأثيره في أوساط اليمين الغربي، إذ إنّه مكتوبٌ بأسلوب بسيط، شخصيّ، يشبه الى حدٍّ بعيد سلسلة «بوستات» من تلك التي يكتبونها ويقرأونها على الإنترنت. بهذا المعنى، لم يكن برنتون تارَنت واهماً أو كاذباً حين زعم في بيانه أنّه ينتمي الى جماعة تُقاسمه معتقداته الأساسية وفكرة «القومية الإثنية البيضاء» و"أنها «تعدّ بالملايين» (أتابع، منذ ما بعد 11 أيلول، تطوّر هذه الحركات ومواقعها على الإنترنت وأدبياتها، وذلك بدأ لأسبابٍ عمليّةٍ بحت: كنت أقطن في الغرب، ولم أكن أريد أن تفاجئني ـ وأناً غافلٌ في أمان الله ـ فرق موتٍ نازيّة تجوب الشوارع).

حرب الديموغرافيا

من البداية، عنوان «البيان» («الإحلال العظيم») يحيل الى نظريّة شهيرة في صفوف اليمين الأوروبّي، وهي لم تظلّ ـ في بلدها الأصلي، فرنسا ـ محصورةً في حلقات هامشية أو أكاديمية، بل تبنّاها ـ بدرجاتٍ مختلفة ـ مثقّفون شهيرون، مثل أريك زمّور، وأصبحت لازمةً في كلام اليمين عن المهاجرين في الإعلام وعلى المنتديات. هذه الفكرة وجدت حتى تجسيداً أدبيّاً، في رواية ويلبيك الشهيرة «خضوع» (كتبت عنها مراجعةً في الماضي)، ومنطق الرواية فعلياً يماثل الى منطق المجرم في بيانه: «الولادات، الولادات، الولادات». الفكرة هنا بسيطة، وهي أنّ منسوب الولادات لدى المهاجرين «غير البيض» هو أعلى منه لدى «البيض» في المجتمعات الغربيّة، والبيض الأوروبيون لا يتوالدون كفايةً لتعويض كتلتهم السكّانية، فهم إذاً سيتناقصون، فيما يتزايد المهاجرون (السمر والمسلمون) في وسطهم حتى يصيروا أقليّة وتنتهي «الحضارة الأوروبية».

أيّ باحثٍ في الديموغرافيا سيشرح لك أنّ الأمور لا تحدث هكذا، وأنّك لا يمكنك أن تمسك بأرقام الولادات الحالية وتفترض ثباتها لقرنٍ الى الأمام، وأنّ السعي الى «الثبات الديموغرافي» في أي مجتمعٍ، أصلاً، هو هدف واهم. لكنّ هذه الفرضيّة أصبحت «صيحة الحربِ» عند اليمين العنصريّ، والمسألة عند تارَنت، والكثيرين غيره، هي واضحة وميكانيكيّة: المهاجرون وأبناؤهم (تحديداً المسلمون) هم «محتلّون» بمجرّد وجودهم البيولوجي واختلافهم العرقي، وهم «أعداء» لأنّهم يتوالدون، والحرب ضدّهم هي حربٌ من أجل البقاء، تستدعي كلّ الوسائل وأعنفها. كلّ مغربيٍّ تراه في فرنسا وكلّ تجمّعٍ للأتراك في ألمانيا ينظر إليه العنصري، من هنا، على أنّه تحقّقٌ للنبوءة، كلّ طفلٍ أسمر في الغرب هو دليلٌ على هذا «الغزو الديموغرافي»، وأيّ رمزٍ لثقافةٍ غريبة هو من علائم «الاحتلال» ـ لحظة «التحوّل» الشخصيّة في حياة القاتل، بزعمه، كانت حين زار متجراً في بلدةٍ فرنسيّة، فوجد عدد المهاجرين فيه أكبر من عدد الفرنسيين البيض، ليفرّ من المكان ساخطاً، ثمّ ينهار بعد ذلك باكياً أمام مقبرةٍ للجنود الذين قضوا خلال الحرب العالمية، لأن «تضحياتهم» لم تمنع «الغزو الإسلامي» الذي تعرّضت له القارّة بعد الحرب.

حتّى هجوم تارَنت على النخب الرأسماليّة الغربيّة، كونها سهّلت تسرّب المهاجرين ليكونوا عمالة رخيصة في السوق، لا يبعد الّا خطوةً عن تنظيرات ستيف بانون وعقيدة «اليمين الجديد» الداعم لترامب في أميركا (الفارق هو أنّ تارَنت يدعو الى قتل الزعماء الغربيين «الخونة»، فيما بانون يريد الانقلاب عليهم وإزاحتهم عبر الانتخابات). أفكار تارَنت عن الإسلام والمسيحية و«القومية الإثنية»، وتعريفه لـ«الحضارة الأوروبية»، هي آراء عليها توافقٌ واسع في صفوف اليمين الغربي الصاعد، وليست «متطرّفة ومعزولة» (مثلاً، عدم التركيز على المسيحية بالمعنى الديني هو نقطةٌ تكتيكيّة تتشارك فيها أغلب حركات اليمين العنصري؛ فالعقيدة المسيحيّة تضمّ أكثريةٍ من «غير البيض»، كما أن الغربيين البيض مقسمون الى مذاهب وكنائس مختلفة، فالخطاب العام لدى «اليمين الجديد» يعتمد المسيحية كرمزٍ تاريخي و«قومي» للأوروبيين، ولكن من خارج إطار العقيدة الروحية). لا تختلف منطلقات المجرم الأوسترالي إذاً، في الكثير من جوانبها، عن منطلقات ستيف بانون أو مارين لوبان ـ وجمهورهما الواسع ـ الاختلاف هو أنّ تارَنت (وأمثاله) يؤمن باستحالة «الطريق الديموقراطي» حلّاً لـ«المسألة العرقيّة»، ويبني على هذه الخلاصة (يكتب القاتل في بيانه أنّ انتخاب ماكرون رئيساً لفرنسا كان الحدث الذي أقنعه بذلك).

تاريخ العنصرية وتاريخ «التسامح»

الأساس في تفسير أحداثٍ من هذا النوع هو أن دوافع الفاعلين، ورؤيتهم الى العالم، لا تهمّ إلّا ضمن حدودٍ معيّنة (قد يكون القاتل استحال عنصرياً مجرماً بسبب حدثٍ ما أو مظلومية حقيقية أو متخيلة، أو بدافع أيديولوجي بحت، أو لأنه لا يحبّ مظهرنا، كلّ هذا لا يهمّ، ولا رابط بينه وبين أن تقتل الأبرياء وتدعو الى المذابح ـ وهذا ينطبق في بلادنا كما في الغرب). لكلّ إنسان رؤية الى العالم وتبريرات ودوافع لما يفعله، وفي كلّ الثقافات جوانب استعلائية أو عنصرية، وفي كلّ مكان متعصّبون دينيون وأناس عنيفون. إن كنت لا تملك منهجية ما في النظر الى التاريخ، فإنّ من السهل أن يصبح العالم «مسطّحاً»: عندنا عنصرية وعندهم عنصرية، هنا إرهاب وهناك إرهاب، وطالما أنّ هناك مشتركات بين خطاب اليمين و«داعش» فهما إذاً الشيء نفسه. هذه الرؤية لا يمكن أن تقود إلا الى نظرةٍ عدميّة أو إلى مثاليّة تبسيطية، تعتبر أنّه يكفي أن نحارب «آفات» التعصّب والعنصرية (الخ)، وأن نزيلها من رؤوس الناس عبر «تنويرهم»، حتى يختفي العنف والإرهاب عن البسيطة. المقابلة بين «الشرق» و«الغرب» لها معنى مختلف في كلّ زمن، ومفهومٌ مثل «الحروب الصليبية» أو «صدام الحضارات» موجودٌ منذ ألف عام، ولكنّ سياقه ومفاعيله في القرن الحادي عشر تختلف تماماً عنها في عصر الإمبريالية.

مسألة المهاجرين، ووجود أعدادٍ كبيرةٍ من «أبناء الجنوب» في المتروبول الأوروبي، لم تولَد بالصدفة واقتفاء أثر ما جرى يبدأ من هنا. يجب أن نتذكّر دوماً أنّ المهاجرين في أوروبا لم يأتوا إليها لأنّ الأوروبيين سمحون ويحبّون تقاسم خيراتهم (كما يصوّر بعضنا الأمر). بعض المهاجرين وصلوا الى أوروبا بسبب علاقات تاريخية استعمارية (مثل الهنود وأبناء جزر الكاريبي في بريطانيا، أو الأفارقة في البرتغال والجزائريين في فرنسا)، والقسم الأكبر هاجر خلال «الانتقال العظيم» للعمالة إثر الحرب العالمية الثانية. هذه العملية مرّت بمراحل مختلفة، لكنها كلّها جرت تحت الضّغط والاضطرار والحاجة الى يدٍ عاملة ودماء شابّة. بعد الحرب مباشرةً، كان الخيار واضحاً أمام المخططين في أوروبا (هل تريد أن تجرى إعادة الإعمار في عشر سنواتٍ أو ثلاثين سنة؟ وبأي كلفة؟). وفي العقود الأخيرة، وجدت النخب الأوروبية نفسها أيضاً أمام معادلةٍ مشابهة: شعوبنا تشيخ، فإمّا أن نستورد عدداً معيناً من العمّال والشباب كلّ عام، أو يصبح أسلوب الحياة في أوروبا مستحيلاً (وتفلس صناديق الضمان، ويتوقّف النموّ، وتصبح العمالة في أوروبا نادرة وغالية وغير تنافسية، الخ). يجب أن نفهم إذاً أنّ هذا المجتمع «المتنوّع» كان نتاج هذا الشكل من الرأسمالية، في سياقٍ تاريخيّ محدّد. ومنظومة «التعددية الثقافية» وأيديولوجيا «التنوّع» التي تسود في أوروبا الغربيّة قد جاءت لتسيّر هذا المجتمع («التعددية الثقافية»، التي يعاديها اليمين العنصري، لم تأتِ نتيجة نضالٍ شعبي أو مطالبات أبناء المستعمرات، مثلاً، بل مثّلت «توافقاً» بين النّخب الحاكمة).

يجب أن نتذكّر أيضاً أنّ هجرة العمالة الى الغرب كانت الوجه الآخر لسياسات الغزو والحرب والهيمنة في الجنوب العالمي خلال الفترة ذاتها. كما يقول علي القادري، هناك قانونٌ واحد للتراكم الرأسمالي حول العالم، والعرب الذين هاجروا الى أوروبا يؤدّون، ببساطة، دوراً مختلفاً عن دورهم في «المستعمرات»؛ والرّخاء في أوروبا ـ مثل الفقر والخراب في بلاد الجنوب ـ هو نتاج العمليتين معاً (والكثير من العرب، الذين جاء حظّهم أن يصلوا الى الغرب، يفضّلون بالطبع موقعهم هذا على البديل في أوطانهم، وقد يشعرون بالامتنان والشكر للنظام الذي استقبلهم، ويصبحون مخلصين له أكثر من مواطنيه الأصليين).

لهذا السبب، نجد التناقض الظاهر بين أيديولوجيا غربيّة حاكمة تدعو الى «التسامح» في بلادها، وتنبذ العنصرية وترفض الهجمات على المسلمين ضمن أراضيها، لكنّها تلعب بحياتهم القمار ـ جماعياً ـ في مواطنهم الأصليّة، ويتمّ تدمير دولٍ وحصار أخرى وتجويعها من قبل أنظمة «ليبرالية» تؤمن بـ«التعددية الثقافية». بالمعنى ذاته، فإنّ رفض «الإرهاب الأبيض» في الغرب ليس مردّه حبّ المسلمين والخوف عليهم، بل إنّ هذا النمط من العنف يوجّه الى الدّاخل، وهو كفيلٌ بأن يشعل الحرب الأهلية عندهم وأن يهدّد نظامهم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي على كلّ المستويات (لا يدعو تارَنت في بيانه الى قتل المهاجرين فحسب، بل أيضاً الى قتل أنجيلا ميركل وصادق خان ـ عمدة لندن المسلم ـ و«الخونة»، وهو يعرض خطّةً ساذجة لإشعال حربٍ أهلية في أميركا عبر جريمته). هذا العنف تجاه الشعوب الأخرى، والكراهية والخوف من «السّمر»، والعنصرية والأحقاد التاريخية، يجب أن تصرّف كلّها في الخارج، على أرض هؤلاء «الآخرين». بمعنى آخر، فإنّ الشعار الضمني للجيش الأميركي اليوم هو «إن أردت أن تقتل عربيّاً، فلا تهاجم منزل جارك، بل انضمّ ببساطة الى الجيش». وهذا الهدف ـ أن تقتل مسلمين ـ يتكرّر بشكلٍ رهيب في شهادات الجنود الأميركيين الذين تطوّعوا في السنوات الماضية وقاتلوا في العراق وأفغانستان. هل علينا أن نفترض أنّ هؤلاء يستحيلون فجأة، حين يعبرون الحدود عودةً الى أميركا، مواطنين صالحين يحبّون جيرانهم المسلمين، بعدما قضوا سنواتٍ يقتلونهم بحبورٍ في أفغانستان، أو يصطادونهم بطائراتٍ مسيّرة من خلف شاشةٍ حاسوب؟

خاتمة

«الإرهاب الأبيض» ليس أوّل أو آخر الأهوال التي تتعرّض لها الأقليات المهاجرة في الغرب، ولكنّ هذا الشكل من العنف ـ تحديداً ـ لن يتحوّل الى ظاهرةٍ أو الى سياسة دولة هناك، فالنّخب الغربيّة، إن أردنا التبسيط، قد اختارت، وهم يفضّلون الهيمنة العالمية على فكرة الصّفاء العرقيّ؛ وهذا لا علاقة له بنظرتهم الى الإسلام أو الى الديموقراطيّة والمواطنة. المشكلة هي أنّ هذه الأفكار العنصريّة التي أصبحت «تيّاراً عريضاً» مع اليمين الصاعد، تتسرّب الى السياسة والحكام والقوانين في الغرب وتؤدّي الى المزيد من التمييز والإقصاء والعدائية ضد المهاجرين هناك ـ والى عنفٍ أكبر بما لا يُقاس ضدّ العرب والمسلمين في بلادهم الأصليّة. نحن لا نحتاج هنا لأن نذكّر بأن لا «إرهاب أبيض» في الغرب يمكن أن يُقارن، كمّاً أو نوعاً، بـ«إرهاب الحكومات» ضدّ شعوب الجنوب ـ كم في العالم وصله أنّ عدداً لا يقلّ عن ضحايا مجزرة نيوزيلندا، كلّهم نساء وأطفال، قتلوا في غارة سعودية/ أميركية واحدة في اليمن الأسبوع الماضي؟ ولا العنصري «المتطرّف» مثل تارَنت يمكنه أن يؤذينا كالعنصريّات «المحليّة» الوحشيّة، التي تخرج في بلادنا لتنهش شعوبها (الخطاب الذي سمعناه على أرضنا في سنوات الجنون الطائفي التي مرّت، تبدو كلمات السفّاح الأوسترالي ـ وأفعاله ـ أمامها «معتدلة»، وتفتقر الى الخيال. والكثير من النخب العربيّة، مفكّرين وإعلاميين ونشطاء، قد سايروا هذا الخطاب القتّال القبيح، وأصحابه الذين يحلمون بالإبادة، حتى هزيمتهم النهائية؛ لكنّهم اليوم يشعرون بالصّدمة أمام مجزرة كرايستشيرش).

قد تكون المجزرة بداية شيءٍ جديد، أو تمثّل بالفعل (كما أراد مرتكبها) حدثاً يحرف التاريخ في اتّجاه معيّن. ولكنّ ما شاهدناه في كرايستشيرش، المدينة المحافظة العنصرية في بلدٍ قام على الاستيطان الإحلالي، لم يكن إلّا وجهاً واحداً من أوجه الكراهيّة. وأيّ من المصلّين الذين هاجمهم الفاشيّ ـ اللاجئ الأفغاني الذي انقضّ على السفّاح وأجبره على الفرار، أو الأب العراقي الذي حمى ابنيه من الطلقات بجسده ـ فيه كرامةٌ وحضارة وإنسانيّة أكثر بمراحل من برنتون تارَنت، ومن كلّ التاريخ الذي أنتجه.